الدرس العاشر:

التنوّع اللّغوي والجغرافي 1
الجغرافية اللّغوية والأطلس اللّغوي

تعدّ الجغرافية اللّغوية فرعًا من فروع علم اللّغة، التي تهتمّ بدراسة اللغات واللهجات وفق اعتبارات جغرافية، ويعدّ الأطلس اللّغوي واحدًا من قضاياها الأساسية.

1. الجغرافية اللّغوية:

لقد اقتبس علم اللّغة، منذ حوالي قرن مضى، طرق علم الجغرافيا، ليضع حدودًا لغوية للهجات المختلفة في خرائط تبيّن معالم كلّ لهجة، وتفرّق بين لهجة وأخرى، ولا تختلف هذه الخرائط عن خرائط الجغرافيا، إلا في أن ما يدوّن عليها ظواهر لغوية، تطلع القارئ على أدق الفروق في الأصوات والمفردات، بين اللغات المختلفة، واللهجات المتباينة.

إنّ الحديث عن الجغرافية اللّغوية يستدعي منّا الوقوف على جملة من المصطلحات التي تستعملها الكتابة اللّسانية عادة كمترادفات، ومنها:

- **الجغرافية اللغوية/ جغرافيا اللهجات** *linguistic geography*

ويبحث في تصنيف اللهجات واللغات على أساس جغرافي، كما يبحث في توزيع لهجات لغة ما وفي الفروق بين هذه اللهجات.

- **اللسانيات الجغرافية/ علم اللغة الجغرافي** *geolinguistics*

يهتمّ بدراسة اللغات من حيث توزيعها الجغرافي والسكني، ومن حيث تأثير كلّ لغة في اللغات الأخرى، كما يهتمّ بدراسة اللغات في الحالة التي هي عليها الآن، مع الإشارة إلى عدد المتحدّثين بكلّ لغة، والتّوزيع الجغرافي والأهمية الاقتصادية والعلمية والثقافية، وأيضًا التعرّف عليها في أشكالها المنطوقة والمكتوبة.

- **علم اللغة الجغرافي/ علم اللغة الإقليمي** *geographical /area linguistics linguistics*

فرع من علم اللغة يدرس التوزيع الإقليمي للهجات.

ورغم هذه الاختلافات القائمة بين المصطلحات والمفاهيم، فإنّ الغالبية من المؤلّفات تستعملها كمترادفات للدّلالة على المعنى ذاته.

2. قضاياه وتطبيقاته في العصر الحديث:

رغم وجود بعض الأصول القديمة لهذا العلم، فإنّه يعدّ علمًا اكتمل ونضج في العصر الحديث، ومن أهم القضايا التي يشتغل عليها نذكر:

- الأطالس الجغرافية للهجات والظواهر اللغوية.
- توزيع اللغات المختلفة في جميع أنحاء العالم وذكر الفصائل اللغوية.
- دراسة اللهجات وعلاقة بعضها ببعض.

وسنركّز فيمايلي على القضية الأولى باعتبارها من أهم القضايا المعاصرة.

1.2. الأطلس اللّغوي:

يعدّ الأطلس اللغوي نتيجة لبحثٍ لغويٍّ مبني على أسسٍ ومنطلقاتٍ جغرافيةٍ، الهدف منها جمع واستقصاء صور التنوع اللغوي، بمعنى جمع ومراقبة اللغة المستعملة (اللغة المحكية).

ويعرف الأطلس اللغوي أيضًا بكونه " طريقة حديثة لتسجيل الظواهر اللغوية على خرائط جغرافية مُوطّأ لها بشرح يبين الظاهرة وأماكن تواجدها ومراحل حياتها؛ ليجمعها في نهاية الأمر مجلد أو مجلدات تضمّ بين أجزائها ما يتعلّق بالخرائط اللغوية لتأتي الخريطة في نهاية الأمر وسيلة لإيضاح الظواهر وتوثيقها بخرائط جغرافية..".

وجاء في قاموس علوم اللغة لـ فرانك نوفو أنّ " الأطلس اللساني هو مؤلف جماعي ينجز انطلاقًا من تحقيقات ميدانية هدفها حصر لهجات جهة أو مجموعة جهات وتحديد موضعها ودراسة التنوّعات والإبدالات والتطوّرات اللسانية دراسة مدقّقة, ويقوم المستجوبون عن طريق استجواب متعلّق بالخصوص بنمط التعبير عن بعض المفاهيم ونطق بعض الكلمات وترجمة بعض اللفيظات، ببحوث ميدانية لدى المتكلمين في الجهات التي تختار مسبقًا على أساس معايير دقيقة".

وبحسب ماريو باي، "هناك واحد من أهم العيوب، التي تقلّل من قيمة الأطلس اللغوي، وهو أنّه لا يثبت على مرّ الزّمن، مادامت اللهجات المحلية تتغيّر، ربما بدرجة أسرع من اللغة الأدبية. ولهذا فإنّه في بعض الأحيان، يعاد إجراء عملية المسح اللغوي بعد مرور سنوات عدّة، ويصبح من الممكن حينئذ عمل مقارنة بين نتائج الأطلسين، وتكوين صورة شبه تاريخية، عن التغيرات المتشابكة في كلام مجتمع معيّن".

2.2. طرق عمل الأطلس اللغوي:

بدأت فكرة عمل الأطلس اللغوي في النصف الثاني من القرن 19، بريادة كلّ من ڤنكر *Wenker* الألماني، وجليرون *Gilliéron* الفرنسي. وقد قام كلّ منهما بعمل أطلس لبلاده، ثمّ انتقلت الفكرة إلى بعض البلاد الأخرى كإيطاليا وسويسرا والسويد والنرويج..، بل تعدّتها إلى أمريكا وبعض البلدان الشرقية.

أ. الطريقة الألمانية:

وهي من ابتكار وتنفيذ (ڤنكر)، وقد بدأ عمله بجمع الخصائص اللهجية في مساحة ضيّقة، عام 1876، ثمّ وسّع ميدان البحث تدريجيًا حتّى شمل الامبراطورية الألمانية كلّها في حوالي خمسين ألف 50000 نقطة تسجيل، وتتلخّص طريقته في تأليف أربعين 40 جملة تمثّل أهمّ ما يجري على ألسنة النّاس في حياتهم اليومية بألمانيا، وطَبْعُها في شكل استمارة بها بيانات عن الراوي والمسجّل اللّغويين والجهة التي سجّلت فيها اللّهجة، وبعد تجميع الاستمارات في المركز الرئيسي لعمل الأطلس يبدأ بعمل خريطة لكلّ كلمة على حدة.

ب. الطريقة الفرنسية:

سادت هذه الطريقة فترة طويلة في عمل الأطالس اللّغوية، وتتمّ بعمل خريطة للإقليم الذي يراد وضع أطلس لغوي له، وتنتخب منه قرى وبلاد، يشترط في كلّ منها أن تمثّل إلى حدّ كبير البيئة اللّغوية التي توجد البلدة أو القرية فيها، وقد بلغ مجموع هذه البلاد في أطلس إيطاليا حوالي أربعمائة 400 بلدة، بعدها يؤلّف كتاب خاص، يعرف بكتاب الأسئلة اللغوية، يحتوي على 2000 أو 2500 سؤال.

تعطى نسخ من هذا الكتاب الخاص للمسجلين اللغويين، فيذهبون إلى القرى والمدن، للاستيضاح من ثقاتها والوقوف على التعبير الدّقيق والمنطق الصحيح لكلّ ما يراد معرفته والإجابة عنه في الكتاب الخاص. أمّا الشخص الذي توجّه إليه الأسئلة، وهو الراوي اللّغوي فيجب أن تتوفّر فيه جملة من الشروط، كأن يكون من أبناء المنطقة التي يقطنها، لم ينزح إلى غيرها حتّى لا تتأثّر لهجته بعد عودته، أن يكون صريحًا وصادقًا، ولم يتأثّر بعوامل ثقافية تؤثّر في لهجته، وأن يكون سليم مخارج الأصوات.

وهو كما يبدو لنا أمر قريب ممّا صنعه العرب القدامى عند جمعهم اللّغة من القبائل، وتركيزهم على الأفحاح من أبنائها إضافة لجملة من الشروط المكانية والزمانية.

3.2. محاولات عربية لصناعة أطلس جغرافي:

أبان الأستاذ شتيجر *Steiger* العالم اللغوي السويسري، الذي له بهذا الموضوع عناية خاصة، عن قيمة الأطلس اللغوي، وأهميته للغة العربية، بقوله في تقرير له: "وبالنسبة للغة العربية، نقول: إن القيام بعمل أطلس لغوي لها، سيحدث ثورة في كل الدراسات الخاصة بفقه اللغات السامية؛ لأنه سيكمل من غير شك، الدراسات التي تعتمد على النصوص القديمة، بكشفه عن التطورات المتعلقة باللهجات، وباللغات الشعبية العصرية. وسيكون لهذا الأطلس الفضل في إطلاعنا على تاريخ الأصوات، والتغيرات التي أصابت اللغة العربية، في الأماكن المختلفة التي غزتها، وعن مدى انتشارها وتأثرها بالمراكز الثقافية، وتنوع مفرداتها، إلى غير ذلك من المكتشفات، التي لا يمكن أن تتم، إلا إذا جمعت هذه المواد. إنّه سيكون عملاً ثقافيًا من الطراز الأول، وسيكون تحقيقه عنوان مجد وفخار في تاريخ الثقافة العالمية".

إنّ الحديث عن أطلس لغوي للغة العربية سيعني الحديث عن محاولات برجشتراسر عام 1914؛ حيث قام بعمل تسجيلاته بنفسه في بلاد الشام، (دمشق، معان، حلب، فلسطين، لبنان)، فكانت الحصيلة عبارة عن 42 خريطة تفصيلية وواحدة إجمالية، مع شرح لغوي في كتاب مستقل، طبع في ليبزج سنة 1915.

ومن بين المحاولات العربية نذكر:

- خليل محمود عساكر، قام بعمل أطلس عن مناطق اللهجات في الفيوم بمصر، سنة 1948.
- أحمد عبد الله ياغي، من خلال رسالته في الدكتوراه، التي ختمها بخرائط جغرافية لغوية للتبادلات الصوتية التي ذكرها الجغرافيون في قبائل الجزيرة العربية.

إضافة لمحاولات ودراسات عديدة تقوم بها اليوم بعض الجهات كمراكز البحث والجامعات العربية.

ولا شك في أن المسح الجغرافي للهجات العربية المختلفة، في البلاد العربية، له فوائد جليلة، أهمّها :

1. دراسة هذه اللهجات لذاتها، دراسة علمية عميقة، لاكتشاف ما فيها من خصائص الصوت والبنية والدلالة والتركيب، ولمعرفة التغييرات المختلفة، التي تطرأ عليها من وقت لآخر.

2. إثراء الدراسات في العربية الفصحى نفسها؛ إذ يتيح لنا ذلك المسح الجغرافي، كتابة تاريخ هذه اللغة، في عصورها المختلفة، ويمدنا بوسائل علمية لمعرفة أقرب اللهجات العربية، صلة باللغة الفصحى، وأبعدها عنها.

3. يمدنا هذا المسح الجغرافي بالمعلومات اللازمة، لمعرفة مدى امتداد اللهجات العربية القديمة، في الوطن العربي، ويفسر لنا النصوص المبتورة عن هذه اللهجات، في تراثنا العربي.

4. يتيح لنا هذا العمل، فرص الدراسة المقارنة، لا بين اللهجات واللغة الفصحى فحسب، ولكن بين اللغات السامية المختلفة كذلك، ويقفنا على مصادر الكلمات الأجنبية هنا وهناك.

ملاحظة:

استفادت المحاضرة من المراجع الآتية:

- **رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997.**
- **أحمد شفيق الخطيب: قراءات في علم اللّغة، دار النشر للجامعات، مصر، ط1، 2006.**
- **فرانك نوفو: قاموس علم اللغة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012.**
- **عبد العزيز الحميد: علم اللغة الجغرافي بين حداثة المصطلح وأصوله عند العرب، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، عدد 2، 2011.**

الدرس الحادي عشر:

التنـوّع اللّغـوي والجغـرافي 2
علـم اللّهجـات

هناك اتّجاهان متعارضان في تفسير حياة اللّغة:

- أحدهما نحو الوحدة المتزايدة والاتّساع.
- الثاني نحو التقسيم إلى لهجات.

ويرى اللّغويون أنّ الاتّجاه نحو التقسيم أقوى من الاتّجاه نحو الوحدة، وهذا الاتّجاه هو ما يعنينا في هذا الدرس.

1.علم اللهجات: *Dialectologie*

ورد في معجم فرانك نوفو: "نسمي دراسة تنوع التمييز المكاني للسان علم اللهجات، وهي دراسة، مقارنية أو لا، للأنواع اللسانية (أو الكلام الدارج) التي تقع ملاحظتها في فضاءات محدّدة. وقد شهد علم اللهجات تطوّرًا خلال القرن التاسع عشر انطلاقًا من أعمال النحاة الجدد. ويعتبر جون جلياورن (1854/ 1926) في فرنسا باعث هذا الاختصاص الذي تكوّن انطلاقًا من البحوث الميدانية المنجزة لصياغة الأطلس اللساني الفرنسي. وعلم اللهجات هو أحد أصول اللسانيات الاجتماعية".

إنّ دراسة اللهجات فرع من فروع علم اللغة، وقد كان مهملاً كلّ الإهمال قبل أواخر القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة منها أنّ العلماء كانوا يحاربون اللّغات العاميّة، ويرون فيها مصدر خطر على الأدب، وإنّ دراسة اللغات الشعبية والعاميّة كانت تتطلّب الأسفار والرحلات والاختلاط بسكان الريف، وعلماء اللغة في ذلك العصر كانوا يفضّلون الدراسة الهادئة بالمكاتب.. كما أنّ الدّراسة الجادة للهجات في سياقها الاجتماعي لم تبدأ إلاّ في الستينيات.

وهو أمر كما نلاحظ معاكس تمامًا لما حدث في التراث العربي منذ قرون خلت؛ حيث اهتمّ علماؤنا بدراسة اللهجات غاية الاهتمام، وبذلوا في ذلك كلّ ما أمكنهم من رحلات للبوادي

والقبائل، لأجل السماع من الأقحاح، وجمع اللغة العربية النقية من الاختلاط، لتوظيف نتائجها لاحقًا في دراسة الصوت والمعجم والنحو والدلالة وغيرها...

2. تعريف اللهجات:

لقد عبّر القدماء من علماء العربية بكلمة **اللغة** عن معنى **اللهجة**، ولهذا نجدهم يقولون لغة طيء لغة تميم، لغة الحجاز...، وما يقصدون بذلك، إلا ما يعرف عندنا اليوم باللهجة. هذا وقد أطلق على اللهجة لفظ **اللحن**، قال أحد الأعراب: (ليس هذا لحني ولا لحن قومي)، وعليه يمكن القول إن مصطلح اللهجة في العربية مصطلح حديث لأنّ اللغويين القدامى أطلقوا عليه لفظ" لغة"، أما إذا أرادوا التعبير عن اللغة الخاصة بأمّة من الأمم وشعب من الشعوب كالعربية والسريانية وغيرها، فيطلقون عليها اللسان.

إنّ اللغة الواحدة تتنوّع حسب الفئات والطوائف والجماعات، وحسب ظواهر المجتمع وحسب اختلاف المكان، فاللغة تختلف في المدينة الواحدة، بل وتختلف من إقليم إلى إقليم، وهذا الاختلاف يظهر في البيئات التي استقرّ فيها السكان منذ زمن بعيد، ويعبّر هذا الاختلاف اللغوي عن الاختلاف الثقافي للفئات والجماعات في كلّ إقليم منهم، وهذا الاختلاف اللّغوي يطلق عليه اسم **اللهجة**.

3. أنواع اللهجات:

من المعروف أن الفصيلة اللغوية تتفرع إلى مجموعة من اللغات، وتتفرع كلّ لغة على حدة إلى لهجات متنوعة. ومن هنا، فاللغة المعيارية الأصلية (*La langue Standard*) تتفرع إلى عدة لهجات محلية (*Dialectes Locaux*) ولهجات اجتماعية (*Dialectes sociaux*). فيقصد بالأولى انقسام اللغة إلى مجموعة من اللهجات الجغرافية المحلية. في حين، تدلّ الثانية على انقسام اللغة إلى مجموعة من الطبقات الاجتماعية أو فئات وطوائف وطبقات سكانية واجتماعية.

وإنّ هذه التنويعات أو "التلوّنات اللسانية، أكانت جغرافية أم اجتماعية، إنّما تتحدّد بوصفها مجاميع فروقات تقع، في وقت واحد، في مستويات المعجم والقواعد والأصوات، أو بالحريّ في واحد أو اثنين فقط من هذه المستويات داخل المنظومة، وإنّ هذه المجاميع لتختلف بوظائفها، وتصنّعاتها الوظيفية إنّما تستخلص من رصد استعمالها في عدد من السياقات غير اللسانية".

"لذا تأخذ اللسانيات الاجتماعية دورها في دراسة هذا التنوّع الذي يظهر على سطح اللغة، أنّه متكوّن من خلفيات اجتماعية، ومكانية، تخصّ المجتمع المعيّن، وهذه التنوّعات ذات خصوصيات وملامح مميّزة اكتسبتها من متكلّميها، وبيئتهم، ودورهم، ووظائفهم في المجتمع، وتصنّف هذه التنوّعات إلى أنماط، بالاستناد إلى معايير معيّنة صالحة للتمييز بينها، وبيان خصوصيات كلّ منها، لغويًّا، وجغرافيًّا، ووظيفيًّا، وقد درجت اللسانيات الاجتماعية إلى وضع هذه التنوّعات تحت مظلّة نمطين رئيسيين من الكلام، الأوّل: يسمّى اللهجات الجغرافية أو المحلية، والثاني: اللهجات الاجتماعية".

1.3. اللهجات الجغرافية/ المحلية:

تعدّ ".. اللهجات المحلية *regional dialects* هي تلك اللهجات التي تنتشر في مناطق جغرافية، وتتباين بعضها عن بعض، وتختلف عن اللغة النموذجية؛ إذ تكون هذه أقرب إلى العاميّة في معظم مفرداتها اللغوية، وعلى الرغم من التداخل الشديد بين المناطق الجغرافية في البلد الواحد، فإنّ النظر الواعي، والدراسة الدقيقة لكلام هذه المناطق ينبئان عن وجود فروق وملامح لغوية خاصّة بكلّ منطقة، وهذا ما يسوّغ الحكم بوجود هذه اللهجات، التي تتمايز في مستويات اللّغة الأربعة، الصّوتي، والصّرفي، والنّحوي، والمعجمي".

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ "هذا النّوع من اللهجات يختلف بعضه عن بعض اختلافًا كبيرًا في المساحة التي يشغلها، فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة، ومنها ما يشغل بعض القرى المتقاربة، وكلّ لهجة من اللهجات المحليّة تعمل جاهدة على الاحتفاظ بشخصيّتها وكيانها، فلا تدّخر وسعًا في محاربة عوامل التغير والابتداع ".

2.3. اللهجات الاجتماعية:

سبق وتناولناها في درس مفصّل جدًا في بداية البرنامج، (ينظر المحاضرة 3).

4. أسباب وعوامل نشأة اللهجات:

تتعدّ أسباب نشأة اللّهجات، ومن أشهرها وفق ما أوردته المراجع، نذكر:

- **أسباب جغرافية،** إذ يؤدي اختلاف البيئة إلى اختلاف أنماط العيش، وما دامت البيئة تؤثر في أصحابها جسميًا ونفسيًا فإنّ هذا سينعكس على أدائهم للكلام.
- **أسباب اجتماعية،** وتظهر من خلال انقسام المجتمع إلى طبقات وفئات مختلفة.

– احتكاك اللغات وصراعها.

– **أسباب فردية،** فلكلّ فرد لهجته الخاصّة، وتسمّى هذه الخاصيّة بالمغايرة الفردية، إذ هناك لهجات في كلّ لغة بقدر الأفراد المتكلّمين بتلك اللغة.

– **أسباب سياسية،** فكلّما ضعف الحكم المركزي للدولة بسبب شساعتها، وكثرة أقاليمها التابعة لها، واختلاف الشعوب الخاضعة لحكمها، أدّى ذلك إلى انقسامها وانفصال الوحدة السياسية، وهو ما يؤدّي إلى انفصال الوحدة الفكرية واللّغوية، فتنبثق لهجات جديدة عن اللغات القائمة.

– **أسباب شعبية،** تعود إلى الاختلافات العرقية، والأصول التي ينتمي إليها سكان المناطق المختلفة.

هذا ويبقى العامل الجغرافي والاجتماعي والصراع بين لغات الأغلبية والأقلية العوامل الأساسية في انقسام اللغات إلى لهجات عديدة.

ملاحظة:

استفادت المحاضرة من المراجع الآتية:

– حسن كزار: اللسانيات الاجتماعية في الدراسات العربية الحديثة..، دار الرافدين، بيروت، ط1، 2018.

– جولييت غارمادي: اللّسانة الاجتماعية، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1990.

– عمر عبد الرحمن الحرمي: التوزيع اللغوي الجغرافي في شبه الجزيرة العربية، دكتوراه، جامعة البصرة،2013.

– فرانك نوفو: قاموس علم اللغة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012.

– مانت بولغيتي: جهود عبد الجليل مرتاض في علم اللهجات، ماجستير، جامعة أدرار، 2014/2013.

– مها معاذ: الأنثروبولوجيا اللغوية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2009.